

مسعود بالثروة، وقد تعرضت تجارته لمثل ما تعرضت له تجارة علي من هذا الخطر الذي جاءها من القاهرة على أيدي هؤلاء الشياطين الذين نَظَّمُوا التجارة تنظيماً حديداً ويسروها تيسيراً لا يقدر عليه الحاج مسعود وأمثاله، ولولا أن الحاج مسعوداً كان رجلاً صالحاً بأدق معاني الكلمة لتعرض من البؤس لمثل ما تعرض له علي، ولكنه ضبط نفسه وحزم أمره وكفَّ عن التجارة حين رأى أن المضي فيها خطر، واكتفى بما كان عنده من مال ينفق منه على نفسه، ويبر منه بناته وأصهاره في اعتدال ورفق، ثم لزم شيخه أشد ما يكون له لزوماً، حتى إذا مات الشيخ لم يلزم ابنه الحدث، وإنما أقعدته السن في داره، فكان يزور الشيخ الفتى بين حين وحين، ولو قد بقيت على الحاج مسعود ثروته عريضة وتجارته نامية لما استعانه خالد على ما كان يلقي من الجهد في تعليم بنيه، فقد كان خالد شديد الحياء، وكانت امرأته أشد منه حياء، وكان الزوجان يجدان لذة غريبة في هذا البؤس الذي كانا يضطران الأسرة إليه لتعليم أبنائهما. ومن الحق أن هؤلاء الأبناء كانوا يكافئونهما أحسن المكافأة على ما كانا يبذلان من جهد ويحتملان من ضنك، فقد كانوا نابهين على الجملة، وكانوا على كل حال ممتازين على أترابهم من شباب المدينة، فكانوا ينجحون حين كان يُخفق أبناء كبار الموظفين، وقد ظفر أحدهم بالشهادة الثانوية لم يرسب مرة واحدة، على حين أن قرينه ابن المأمور الذي دخل معه المدرسة الثانوية في عام واحد لم يزل في السنة الأولى، وقد كاد يُفصل من المدرسة لولا أن أباه استعان ببعض أصحاب الجاه، فكان المأمور وكبار الموظفين يحسدون خالداً، لا يكادون يُخفون هذا الحسد، وكان خالد وامرأته يجدان في هذا الحسد لذة منكراً لا يكادان يخفيانها، وكان خالد يتقي هذا الحسد بقراءة القرآن والإلحاح في الدعاء، كما كانت «منى» تتقي هذا الحسد بالبخور وبهذه الأدعية التي لا يُعرف أمتجته إلى الله أم إلى الشيطان، وكان الشباب يضحكون من هذا كله ويعبثون من أهمهم وأبيهم جميعاً. وفي أثناء هذا كله كان بنات «منى» ينمون ويتقدمن نحو الشباب جساراً رائعات، وكان الأبناء يتتابعون لا يكاد يدرج واحد منهم حتى يتبعه آخر، وجلنار هي القائمة على أمر هذه الدار بإرشاد خالتها وبتعنيف خالتها أيضاً، وقد كُثِرَ العمل على جلنار، فالصبية كثيرون، وشئون الدار لم يَقل تعقيدها، ولكن قلَّ فيها الخدم؛ فلم يكن بد من الاقتصاد. وكان العمل يثقل على جلنار بنوع خاص أثناء الصيف وفي إجازات الأعياد حين يُقبل هؤلاء الشباب، فيملئون البيت حركة ونشاطاً، والغريب أن أحداً من هؤلاء الشباب لم يخطر له أن حال الأسرة قد تغيرت، وأن ثراءها قد ذهب، وأن مالها قد قلَّ؛